من مخيم اليرموك إلى رام الله *

د. أحمد برقاوي

الأحد الثامن من نيسان ٢٠١٢

لا أعتقد أن القائمين على إجراء السفر كانوا يقصدون أن يكون المخيم هو نقطة الإنطلاق للرحلة إلى رام الله لما لذلك من دلالة رمزية.

لكن الخروج من المخيم إلى رام الله يحمل معنى عميقاً جداً.

فالمخيم هو مكان اللاجئ من فلسطين الذي يجب أن يكون نقطة الانطلاق إلى فلسطين.

والمخيم كما ذكرت هو الأرشيف الأكبر لفلسطين الذي يتنقل من ذاكرة إلى أخرى دون أن يصيبه البلى.

لقد عشت في المخيم منذ ١٩٧٠ وحتى عام ١٩٩٠ باستثناء سنوات ست عشتها في الإتحاد السوفييتي، قبل أن أنتقل إلى حي المزة في دمشق، ولم أنقطع عن المخيم أبداً.

فقبل وفاة شقيقي محمد قاسم عام ٢٠٠٥ كنت أذهب إلى المخيم مساء كل يوم تقريباً والمسافة بين بيتي في المزة والمخيم في السيارة لا يتجاوز عشرين دقيقة، فضلاً من ذلك فإن سوق المخيم هو سوقي الذي أؤمن منه حاجاتي. ولايمضي أسبوع إلا وأزور أخوتي وأخواتي في المخيم، بكلمة واحدة مازال المخيم جزءاً أثيراً من عالمي اليومي. وفي المخيم قبر أمي وقبر أبي وقبر أخي وقد كان أمامي خيار أن أذهب إلى عمان وحدي، لكني آثرت أن أذهب بصحبة الفلسطينيين، ومن المخيم في الرحلة إلى فلسطين، المخيم هو لوحة فلسطينية معروضة في متحف خارج فلسطين.

---

* فصول مختارة من كتاب سيصدر قريباً.

الثامن من نيسان الساعة الثالثة والنصف صباحاً من يوم الأحد عام ٢٠١٢ يوم حُفر في ذاكرتي وفي روحي حفراً عميقاً، فأنا لا أذكر تاريخ حصولي على الدكتوراه، ولا تاريخ تعييني أستاذاً في جامعة دمشق، بل ولا أذكر تواريخ أي تكريم لي، لكن يوم الأحد الثامن من نيسان هو يوم أشبه بالصورة البارزة في تاريخ حياتي.

في الساعة الثالثة والنصف صباحاً يقلني ابني إيهاب وزوجتي نبيلة إلى المخيم.

أمام جامع المهايني في شارع اليرموك تجمع حشدٌ من الفلسطينيين يتجاوز المئة شخص، مئة من الأطفال والشباب والكبار والنساء، مسافرون ومودعون ولست تدري من هو المسافر ومن هو المودع، أودع زوجتي وابني وأقترب من الجمع، عدد كبير من الواقفين يتقدم نحوي مسلماً.

كان المشهد أشبه بفيلم تراجيدي بالمعنى الدقيق للكلمة ولكن في صورة سوريالية جداً.

تحتضن أم ابنها والدموع تنهمر من عينيها وتقول بلهجة فلسطينية شمالية:

"يما حبيبي، مع السلامة يما، لاتنس هه تجيب معاك كمشه من تراب فلسطين يما".. ثم تجهش .

فتاة تبكي على صدر رجل وتقول: "ريتي معك خيّا ".

امرأة تحمل بيدها غصن ياسمين دمشقي مزروع في تراب والتراب داخل كيس من النايلون، إنها ابنة شهيد وتريد أن تزرع الياسمين الدمشقي ذكرى لوالدها في فلسطين.

الحزن يطل من الوجوه كما الفرح في آن واحد، بكاء الشباب يجرح نفسي وأنا أتأمل المشهد.

أطفال يمرحون كأنهم في صبيحة العيد.

جميعنا - نحن الذاهبين إلى فلسطين- ولدنا خارج فلسطين ولا نعرف شيئاً عنها سوى أنّا منها. لم نعش فيها ولكنا متعلقون بها .

أتساءل: ترى من ذا الذي باستطاعته أن يقتلع فلسطين من قلوب أبنائها، إذا كان لدى الطفل الفلسطيني مثل هذا التعلق بوطنه.

ما أن تحركت عجلات الباص حتى تحولت كل الأكف المودِعة والمودَعة إلى تلويحات، المخيم شبه صامت نجتاز شارع اليرموك، نودع المخيم بنظرات عابرة، ومرت لحظات من صمت التأمل، فالرحلة إلى فلسطين حدث فذ، وبدأت أصوات الأحاديث الجانبية تتعالى شيئاً فشيئاً، الشارع العام المتجه إلى درعا خالٍ تماماً من السيارات، ففي هذه الوقت الخامسة صباحاً تقريباً من النادر أن تجد باصات باستثناء الحافلات الكبيرة، ولكن الحافلات نفسها غابت عن الأنظار بسبب الحواجز على الطريق.

تجاوزنا حاجز حي القدم باتجاه الكسوة، وصلنا الكسوة فإذا نحن أمام حاجز عسكري ضخم، جنود مدججون بالسلاح وأكياس رمل، وبراميل، وآخرون بلباس مدني توقفنا عند الحاجز وصعد عسكري وعلى وجهه إمارات التعجب والدهشة وكان لسان حاله يقول: ما هذا باص مليء بالركاب الساعة الخامسة صباحاً متجهاً إلى الجنوب.

- إلى أين..؟ سأل بنوع من الاستغراب ..

- نهض أبو عماد- مسؤول فتح - وقال بلهجة مؤدبة جداً نحن ذاهبون إلى فلسطين.

- إلى فلسطين... ردد عسكري بكل استغراب وكأنه ظن أن أبا عماد يمازحه.

- إلى فلسطين- مرة وحدة..!!.

- نعم إلى فلسطين ولهذا نحن باتجاه الأردن.

نزل العسكري ولم يصدق ما يسمع ويبدو أنه راح إلى مسؤوله الأكبر.

صعد شخص بلباس مدني، وقال بكل تهذيب:

- عفواً لو سمحتم الكل يبرز هويته الشخصية.

- أبو عماد- ردد ما قاله الشخص وأضاف:

- نحن هنا جميعنا فلسطينيون.

- حسناً هل لديكم موافقة على السفر..؟.

- نعم

وأبرز أبو عماد جدولاً بأسمائنا جميعاً ويبدو أنه موقع من جهة أمنية.

حدق الشخص بهوياتنا دون أن تغادره الدهشة، وطلب من أبي عماد أن يلحق به.

عاد أبو عماد مسروراً بشوشاً وأشار إلى السائق أن سر.

وما هي إلا دقائق حتى كان الغناء الثوري الفلسطيني يملأ فضاء الباص ثم تطور إلى الغناء الفلكلوري الفلسطيني الفلاحي، برفقة الضرب على "الدربكة".

كان صوت الشباب والصبايا حميماً فرحاً أشبه بذاك الذي يجري في الأعراس الفلسطينية.

وما هي إلا ساعة تقريباً مرت على سيرنا حتى وصلنا الحدود الدولية التي رسمتها بريطانيا وفرنسا بين المستعمرتين السورية والأردنية، ثم حافظت عليها الدولتان بوصفها رمزاً للسيادة الوطنية.

تستقبلك الحدود السورية بصورة الرئيس الراحل حافظ الأسد وصورة الرئيس بشار الأسد وبحجم كبير. توقف الباص عند أول مدخل الحدود، يصعد رجال الأمن، وينزلون مندهشين من هذا المنظر غير المألوف. تتكرر القصة التي جرت أمام حاجز الكسوة ولكنها الآن بصورة حِرفية أكثر.

الجسر

ها هو العلم الإسرائيلي يرفرف فوق مكان ما وها هو جندي مدجج بالسلاح، وها نحن على أرض فلسطين المحتلة جداً، الباص يمر بأرض فلسطين وعلى أرض فلسطين جنود ويهود أو إسرائيليون، دقائق وقد وصل الباصان إلى ساحة شبه فارغة إلا من مجموعة من الشباب يلبسون قمصاناً برتقالية، وقد ظننتهم من اليهود السمر، ولكن تبين لي بعد أن تحدثوا أنهم من سكان أريحا يعملون في المعبر.

عدد من الفلسطينيين رجالاً ونساءً يقفون بالدور مصطحبين معهم براميل صغيرة من البلاستيك مليئة بالماء، فإذا هم مجموعة من حجيج فلسطين قادم من مكة، والماء هو ماء زمزم.

في الساحة لم ألمح مظاهر عسكرية، وقفت لامبالياً، وكأني أسقط في يدي.

وقفت كغيري بالدور وبدأت أقترب شيئاً فشيئاً من صالة المعبر.

وقعت عيني أول ما وقعت على رجل سمين جداً، يلبس قميصاً "نصف كم" وعلى إحدى ساعديه وشم للنجمة السداسية، ويجلس في مقصورة زجاجية يراقب على شاشة أمامه عفش القادمين وبحركة من يده يتقدم القادم إلى كوة الجوازات بعد أن ينتظر إشارة من امرأة توزع القادمين على هذه الكوة أو تلك.

داخل كل كوة امرأتان باستثناء واحدة داخلها رجل وامرأة وجميعهم باللباس المدني.

كنت في هذه اللحظة فاقداً للجاذبية، شارداً، سرت إلى الأمام، ها أنا أقف وجهاً لوجه أمام فتاتين في مقتبل العمر، شكلهما الخارجي لايمت إلى شكل سكان المنطقة إطلاقاً، شقرة الروسيات أو ما شابه ذلك، وكانت إحداهما تتمتم بأغنية وتبدو سعيدة.

فلسطيني يقف متأففاً حزيناً متوتراً غاضباً يدخل وطنه بتصريح ستتأكد منه فتاة غريبة وتوافق على دخوله إن شاءت، وقد تتصرف معه تصرفاً عدوانياً.

وضعت وثيقة السفر الفلسطينية الخاصة باللاجئين الفلسطينيين المقيمين في سورية وتصريح الزيارة أمامها دون أن أنظر إلى وجهها ملياً، بل كنت أنظر وأشيح النظر.

- سألتني بلغة عربية ذات لكنه أجنبية " منين جاي"

- أجبتها بلغة إنكليزية "I'm from Syria"

في تلك اللحظة لم أدرِ لماذا أجبتها باللغة الإنكليزية، ولكني بعد تأمل بإجابتي بلغة إنكليزية فهمت أسباب تصرفي هذا.

إنها على أرض عربية فلسطينية وحدثتني بلغة عربية (مكسرة) ليست لغتها، وبالتالي فإن لغة تفاهم مع غريب عن عالمنا هي لغة أخرى، والإنكليزية هي اللغة الشائعة، فأنا ذهبت إلى دول أوربا الغربية لا أتحدث إلا بلغة إنكليزية "مكسرة" أيضاً.

هذه المرأة غريبة عن المكان، وغريبة عن لغة أهل المكان، فكان من الطبيعي أن أحدثها بلغة غريبة هي الأخرى. الإنكليزية غريبة عني كما هي العربية غريبة عنها، الإنكليزية لا تقيم أي تواصل آخر باستثناء التواصل العملي المؤقت.

حين تلتقي بأبناء جلدتك سرعان ما تصبح اللغة ذات جمالية خاصة، حتى ولو كانت أداة تواصل عملي.

عربية الموظفة غير العربية تزيد من الهوة الفاصلة بيني وبينها، تزيد اغترابها عن المكان ولا تقربها مني أبداً. أبداً ..

كان يمكن أن أحدثها باللغة الروسية وكذلك لم أفعل، فالروسية لغة تعلمتها في وطنها وكتبت فيها وبنيت علاقات تواصل من خلالها، ولو أني حدثتها بالروسية وكانت بالأصل روسية لنشأت علاقة تواصل مباشرة بيني وبينها ونسيت للحظة ما يعبر عنه المشهد، مشهد الفلسطيني القُح ابن طولكرم- ذنابة يستأذن أوربية لا صفة لها سوى أنها يهودية فصارت تمتلك الحق وتسلبه عن الآخرين.

ردت بلغة إنكليزية وبنوع من دهشة الاستحسان مع ابتسامة عفوية

" You are from Damascus Welcome Welcome "

لكن وجود فتاة تلبس لباساً مدنياً، تدندن بأغنية، وتبتسم لك يخفف من استعدادك المسُبق للمشاجرة، بل ولم أشعر بالعدوانية تجاهها كما شعرت عندما رأيت السمين الموشوم بالنجمة السداسية.

خلال دقائق قليلة كان إجراء الدخول قد تم، وخرجت من المعبر إلى الجهة الأخرى.

ها أنا في ساحة كبيرة مليئة بالباصات، عالم الساحة عالم فلسطيني صرف، الفلسطينيون القادمون, على قلتهم, ينشرون لهجتهم في الفضاء، كشك صاحبه فلسطيني يبيع الشطائر.

خلال دقائق خمسة أو أكثر قليلاً قامت الموظفة الإسرائيلية بإجراءات الدخول لي ولأبي عماد ولعدد ممن هم في سني أو أصغر بقليل أو أكبر.

وسرعان ما عقدتُ المقارنة بين إجراءات الحدود العربية وإجراءات معبر أريحا.

رحت أزرع المكان ذهاباً وإياباً، كان الطقس جميلاً طقس غور الأردن في الربيع، جبال أريحا تستقبلك جرداء وسوداء.

فجأة وقعت عيني على شخص يسند ظهره إلى جذع شجرة في زي عسكري ويتدلى من كتفه رشاشاً كبيراً، لقد أفسد علي فرحة اللقاء بالأرض، نظرت إليه هذه المرة كان أسمر اللون وقصير القامة نحيفاً.

تجاهلته تماماً وعدت أزرع المكان بانتظار باقي الوفد، بدأ بعض القادمين من الوفد بالخروج واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية.. ثم توقف الخروج الساعة نقترب من السابعة وبدأت الشمس بالمغيب أو غابت، وراح الليل يشق طريقه إلى المكان.

ها أنا أزرع الساحة بخطواتي وعيناي إلى الأفق مرة وإلى السماء مرة أخرى.

الجبال السمراء جرداء تماماً كأنها تلبس ثوب الحداد، أطيل النظر إليها فأكتشف جمالها الأخاذ، تبدو من قريب أنها ملساء جداً، تشعر بالأمان لأن الصعود إليها صعب، تستقبل نظراتي بنوع من الأسى والعتاب، سمعتها تسألني لماذا تركتني وأنا أمك وحضني هو الأدفأ، بل هو الدافئ وحده. يُطل علي القمر وأنا مدينة القمر غارقاً في حزنه ويسألني عنك، لماذا تركتني، أتذكر امرأة نزار تصرخ في وجه حبيبها "أرجع إلي صحواً كنت أم مطراً فما حياتي أنا إن لم تكن فيها ".

يا جبال أريحا وجدت نفسي لقيطاً، مسروقاً من حضنك، وكبرت تائهاً لقيطاً.

يا جبال أريحا أنا لست بريئاً فلا تعذريني، ولو سفحت كل دموعي على سفوحك فلن أنظف نفسي من هروبي.

تتهادى سماء أريحا إلي وتناديني: كفكف دموعك يا أحمد. وقلب أريحا أرق من أن تفسد عليك اللقاء، أنت في حضنها ولا تدري. جبال أريحا تغني الآن فأسمع إلى آهاتها والمواويل، أسمعها تقول لي: أيها الراحل جرح أنا وهذا الذي على أرضي غريبٌ، هذا الذي يجشم على صدري غريبٌ، لم أغفُ أبداً وأنا أنتظر، لن أخلع ثوب السواد إلا بعودتك.

أنتبه إلى بوابة المعبر يخرج اثنان أو ثلاثة فتصمت جبال أريحا فهي الأخرى صارت مثلي في انتظار.

كنت أظن أن الإجراءات التي تمت وجعلتنا نخرج خلال دقائق من المعبر هي الإجراءات التي ستتم مع الجميع.

أستغل الوقت للبحث في "الكشك" عن شريحة لهاتف نقّال كي أتصل بالأسرة وعدت بخفي حنين.

ساعة وساعتان ثلاث ساعات أربع ساعات لم يخرج أحد ثمانون شخصاً داخل صالة الجوازات لم تعد نعرف عنهم شيئاً، كما أن أحداً لم يكن في استقبالنا.

الساعة تقترب من الثانية عشرة، وقال أحد السائقين المكلفين بنقلنا إلى أريحا أن المعبر يُغلق عادة الساعة الثانية عشرة، داخل المعبر عدد كبير من الأطفال لم يذوقوا -كما نحن- لقمة من الطعام .

أجلس في الباص وإلى جانبي الصديق عبد الرحمن أبو القاسم حدثني عندما سألته عن تأخره قليلاً عن وقت خروجي فقال: أردت أن أصلي وسألت عن القبلة، وقد صليت وكان جندياً إسرائيلياً يراقبني. وعندما انتهيت من الصلاة تقدم مني وقال:

- أهلاً أستاذ عبد الرحمن، الحقيقة أننا نحبك كثيراً أنا وكل أفراد الأسرة نحب مسلسلاتك التاريخية، هل تحتاج إلى مساعدة..؟.

- أجابه عبد الرحمن.. لا شكراً..

- أنت منين ..؟.

- أنا إسرائيلي.

- إسرائيلي، ولكنك تتحدث العربية مثلي وبطلاقة هل أنت فلسطيني..؟.

- صمت الجندي ولم يجب عن السؤال .

- ما أسمك..؟

- أسمي فلان (لم أعد أذكر الاسم).

لقد تقدم من عبد الرحمن شخص درزي عربي فلسطيني إسرائيلي، تقدم من عبد الرحمن لأن عبد الرحمن ممثل فلسطيني، ويمثل في المسلسل التاريخي ويتحدث بلغة عربية.

في لحظة تذكر هذا الذي أسمه (س) أنه هو وعبد الرحمن ينتميان إلى عالم واحد، عندما رأى الممثل الفلسطيني عبد الرحمن استيقظت هويته العربية النائمة بفعل بزته العسكرية الإسرائيلية، هويته هذه أزالت للحظة الهوة التي تفصله عن ابن وطنه- عبد الرحمن، نسي الجندي الفلسطيني

الدرزي بزته العسكرية، وتقدم من عبد الرحمن مبتسماً.

بالمقابل اللغة العربية وملامح هذا الشخص جعلت عبد الرحمن يتكلم معه مبتسماً من حاله.

(س) ابن الجليل وعبد الرحمن ابن صفورية، واحد جندي في جيش الاحتلال والآخر لاجئ قادم لزيارة وطنه.

(س) هذا ليس هو القادم من لاتفيا وأوكرانيا أو بولونيا.. أنه فلسطيني أباً عن جد ويتحدث بلهجة أهل جبل العرب، لكنه يخدم في جيش الاحتلال لا.. لاشيء يبرر أن يكون (س) عسكرياً في جيش الاحتلال، وتحت أي ظرف من الظروف، فهناك آلاف الشباب الفلسطينيين من الدروز يرفضون الخدمة في جيش الاحتلال.

إني لأتساءل، أيهما أقرب لـ(س) العسكري الدرزي في تلك اللحظة عبد الرحمن أبو القاسم أم الضابط الإسرائيلي، قالها (س) بكل وضوح لعبد الرحمن " نحن نحبك..نحن نحبك.. بصيغة الجمع، وقد عرف أن عبد الرحمن من صفوريا، بماذا كان يفكر هذا العسكري عندما عرف أن عبد الرحمن هو ابن صفورية المحتلة المهدمة..؟ ما التغير الذي طرأ على وعيه بذاته..؟ لا أدري.

تخرج الأديبة نعمت خالد غاضبة، لقد فقدت شيئاً ثميناً ما لم أعد أذكر ما هو.

يلحق بها شخص يلبس بدلة خضراء في صورة عسكرية يحاول أن يخفف عنها بلغة عربية ولهجة فلسطينية أيضاً، سمعتها تقول شكراً سيد منذر..! أسمه منذر.. ومنذر قد أهتم اهتماماً شديداً بما أضاعت نعمت. أتساءل ما هذه الورطة الوجودية التي يعيشوها هؤلاء الذين يعملون لدى الدولة العنصرية الاحتلالية وسرعان ما يظهرون هويتهم في العلاقة مع أبناء الوطن الأصلي.

كنت أسمع من السجناء المخطوفين من قبل العدو والذين يطلق عليهم الأسرى قصصاً متناقضة من تعاطف أو عدم تعاطف الفلسطيني الدرزي أو البدوي معهم. أجل إنها ورطة وجودية.

الطريق إلى ذنابة

الأحد الثامن من نيسان ٢٠١٢

أجلس في المقعد الأمامي من السيارة الفارهة- المضيف وبكل شهامة- يقود السيارة بسرعة فائقة، وعبد الرحمن أبو القاسم يجلس في المقعد الخلفي ويلتقط الصور للجبال والمساكن.

ران علي صمت. أسمع أصواتاً ولا أكترث، أنا في الطريق إلى ذنابة التي طالما حدثني عنها والدي أنا

في الطريق إلى ضاحية ذنابة التي لأول مرة لن أشعر بالغربة ولن يقول لي أحدٌ أنت ضيف هنا .

أتخيل والدي الذي لن أزور قبره في ذنابة فقبره في مقبرة الشهداء في المخيم، مع أنه ليس شهيداً، وإنما تكريماً لحضوره العاصف في حياة الناس شاؤوا أن يكون قبره بين قبور الشهداء.

إني في حالة غريبة ولا شبيه لها، فقد يتفهم المرء أن شخصاً غادر بلدته وعاد إليها بعد طول غياب، يتفهم المرء شخصاً ولد خارج وطنه مغترباً ثم عاد من اغترابه إلى بلد أجداده بكل بساطة وسهولة، لكنه الأمر مختلف معي، فأنا الآن في بلدي، ترى هل أنا لاجئ الآن.

قررت أن أفكر عقلياً وأقلل من انفعالاتي، لقد خفت من صدمة رؤية بيتنا.

نمر من قلب نابلس، أنظر على جانبي الطريق إلى نابلس القديمة وتطل علي نابلس الجديدة، آخذ نظرة كلية دون الاهتمام بالتفاصيل، البيوت الحجرية تمنحك إحساساً بالطبيعة الحميمية للبناء، فأنا اشمئز من البيوت الإسمنتية ولهذا أحب مدينة حلب وفنها المعماري، أنظر دكتور هذا جبل عيبال، وهو جبل قمته عالية يطل على نابلس .

أتذكر دار عيبال التي أسسها جورج حبش وتحلق حولها عدد كبير من المثقفين والكتاب الفلسطينيين والعرب، والحق أنك أنّى تجولت بعينيك في ربوع الضفة ستشاهد قمم التلال والجبال والوديان والسهول التي تنام بين جبلين، بل إن منطقة نابلس قد أطلق عليها منطقة جبل نابلس وتضم طولكرم ونابلس وجنين وقلقيلية وسائر مدن الضفة الغربية، في الطريق إلى طولكرم وبيتنا على مقربة منها لافتة مكتوب عليها "كفر اللبد".

خجلت من صاحب السيارة أن أطلب منه الدخول أولاً إلى كفر اللبد حيث لآل البرقاوي هناك قلعة- قصر بناها الشيخ مصطفى البرقاوي .

وتابعنا المسير بالسيارة، وكلما دنوت من طولكرم ازدادت كمية الأدرنالين في دمي.

ثم دخلنا طولكرم.

النظرة الغشتالتية الأولى: مدينة واسعة، ممتدة، جديدة ومزدهرة، صاحبنا الذي يقلنا لايعرف أسماء المناطق والشوارع في طولكرم.

تجاوزنا الشارع العام العريض قليلاً وما هي إلا دقائق معدودة حتى قال لي صاحبي:

- دكتور هذه ذنابة .

وقع الخبر علي متناقض التأثير، الحزن يلفني، الفرح، التوتر، الدمع يجول في عيني. ها أنا في ذنابة

التي لا حدود بينها وبين طولكرم، بل قل إن هي إلا ضاحية من ضواحيها. نظرت حولي وأمامي وقلت لصديقنا:

- أرجوك أنا سأعرف بيتنا دون أن يدلني أحدٌ عليه.

- ولكن هل عشت فيه سابقاً..؟

- لا ولكني أعرفه وأعرف موقعه وتفاصيله.

- يا أخي أنظر كل بيوت ذنابة القديمة متشابهة تقريباً.

- لا: إلا بيتنا فهو مختلف.

- قلت له إسمع إصعد إلى ذاك البيت العالي، إنه هو فالطريق إلى بيتنا صعود.

- يا أخي "خلينا نسأل ..".

- لا لا تسأل هو..

- قف هذا بيتنا، ها هي أقواسه وأحجاره الكبيرة وارتفاعه صرخت وأنا أجهش بالبكاء الشديد والعالي، هذا بيتنا، هذا بيتنا، نزلت من السيارة قبل أن تتوقف، كدت أختنق جف اللعاب في فمي، ركضت وتركت خلفي عبد الرحمن أبو القاسم ومضيفنا الذي أقلنا، دخلت البيت الكبير أولاً ويبدو أنهما لم يكونا على ثقة من حدسي.

في الجانب الأيمن من البوابة وهو المصطلح الذي يطلق على بيتنا بيت طارئ جديد.

قرعت الباب، أطل شخص أيقظته من النوم، أسمر البشرة سمين الجسد.

لم ألق عليه السلام كالعادة، بل بادرته بالسؤال:

- كيفك "شو اسمك"..؟

تفحصني بكل هدوء وربما استراح حين رأى وجهي شبه مبتسم:

- اسمي أحمد برقاوي.

- وأنا أحمد برقاوي، نظر إليَّ ملياً وهجم علي معانقاً ..الدكتور أحمد ابن سيدي نسيم.

شعرت بالإعياء، جلست على حجر، وطلبت كأساً من الماء، وراحت عيناي تجولان بالمكان وأنا أنظر أكثر إلى الأعلى.

لحق بي عبد الرحمن بآلة التصوير وصديقنا وراحا يضحكان بكل دهشة .

وفيما أنا جالس ازداد عدد القادمين والتفوا حولي.

عبد الله شخص من الذين تبقوا في البوابة حارساً لبيت الأهل يعمل في الشرطة الفلسطينية، يعانقني هو الآخر.

- أرجوك.. أريد أن أصعد إلى بيتنا.. أصعدني إلى حيث عاش أبي طفولته وظلت جدتي لولو حتى وفاتها تقيم فيه.

أتأمل في أنحاء البيت الواسع وامتلأ فخراً أمام الصحب، هو ذا درج شبه مهدم، باستثناء طرفه اليميني، ولكن الصعود مخاطرة.

أحمد يضحك ويقول لي:.. ابن عمي.. أصعد.. فلقد وضع يديه على حافة درجة ورجليه على حافة درجة أخرى.. كيف أصعد لايهم امشي على جسدي، ها أنا الآن جسر لك.. أمشِ ابن عمي أمشِ..

كيف لي أن أمشي على جسده..

- لا.. لا أنا سأحاول الصعود بكل تؤده.

- لا ..لا هذا صعب عليك، أصعد ولا تهتم.

باب خشبية قديمة، مغلق بشكل قابل للفتح بناء من العقد، أدخل الطابق الأول المطل على الدنيا على فلسطين، على يافا، على برج بني عامر.

- هنا أمضت عمرها الشيخة لولو - قال أحمد وصمت. أصعد بعد تجوال إلى الطابق الثاني، النوافذ أقواس حجرية وفيها زخرفة أميرية.

غرفتان واسعتان طابعهما روماني مع أنهما بنيا في القرن الثامن عشر.

أجلس على الأرض- أرض إحدى الغرف ثم أجلس على حافة النافذة المطلة على العالم ذاته، أتحسس الجدران الحجرية.

أعب من الهواء بعد أن فتحت الشبابيك، وكنت أردد في صمت عائد أنا إليك أيها البيت لأعيد لك الحياة عائد حتماً.

أطل على ذنابة على المسجد الذي كان يشرف عليه جد ابي الشيخ أحمد الذي وصفه لي أبي بنوع من الحب وتحدث عن جمال هيئته وبهائها.

أنزل كما صعدت، ويشرح لي أحمد .

هذا بيت أبو زكي، وهذا بيت إسماعيل، وهذا بيت عقاب، وهذا بيت الشريف وهذا بيت فلان .

بيت البرقاوي هذا كان يضم أهم شيوخ آل البرقاوي يقال أن الأمير موسى البرقاوي قد احتله من آل بركات في ذنابة وأعاد بنائه وأقام سوراً حوله وساعد على تحصينه الشيخ ظاهر العمر عربوناً حيث تزوج الشيخ داوود أحد شيوخ البرقاوي ابنته وقد أرخ ذلك على جسرٍ حجري سقطت قبل خمسين عاماً .

وعندما تكاثر آل البرقاوي هجروا هذا البيت تقريباً وبنوا بيوتاً جديدةً ذات هندسة معمارية عمارة مشابهة.

نجلس في بيت أحمد ونشرب الشاي ويبدأ الحاضرون من آل البرقاوي يتحدثون عن تاريخ العائلة وقصص بأسها وظلمها وكأنهم فخورون بما سببه آل البرقاوي من ظلم.

ويبدو الظلم واضحاً حينما تغادر البوابة إلى القلعة الملاصقة لها وهي قلعة الأمير موسى البرقاوي أو الشيخ .

ولقب الشيخ آنذاك يعني الأمير، ولهذا كان يطلق على الشيوخ أحياناً الأمراء.

ويبدو أن القلعة كانت مكان إقامة الشيخ الأول أو شيخ المشايخ ومكان مقاومة أي اعتداء خارجي على ذنابة ووادي الشعير الذي كان تحت نفوذ آل البرقاوي.

وقلعة الشيخ موسى هذه واحدة من عدة قلاع كانت تابعة لآل البرقاوي كقلعة شوفه وقلعة كفر اللبد وقلعة المدحدرة وكل قلعة ارتبطت باسم شيخ، ففي الوقت الذي ارتبطت قلعة شوفة التي سأحدثك عنها أيها القارئ العزيز بالشيخ ناصر البرقاوي ومن ثم الشيخ عيسى ارتبطت قلعة كفر اللبد بالشيخ مصطفى ابن الشيخ عيسى، وارتبطت قلعة المدحورة بالشيخ خليل والشيخ غازي وقلعة ذنابة بالشيخ موسى.

والشيخ موسى هذا هو أخو الشيخ عيسى، فحين علم بإعدام أخيه الشيخ عيسى في دمشق ذهب مع بعض مقاتلي البرقاوي وحلفائهم خلف أخيه للانتقام من الذين وشوا بأخيه من البدو، ويقال أن سيلاً هائجاً قد أغرقه وأخذه في منقطة حوران ولايعرف أحد أين دفن .

ويبدو أن هذه قلعة قد بنيت في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وذات فن عمارة متقدم لاسيما وأنها صغيرة بالقياس إلى القلاع الرومانية القديمة وفيها من الزخرفة ما لايخطر على بال، نفتح باب القلعة، الأرض مليئة بنبات" القريّص".

- أحذر ابن عمي أحمد هناك بئران في الأرض.

- آخذ حذري وأخف للنزول إلى الأقبية تحت الأرض.

- أحذر مرة أخرى، منذ زمان لم ندخل هذه الأقبية ذات العقود الضخمة والتي قال لي أحد سكان ذنابة من آل دبلح أنها كانت للسجن والإعدام.

أصعد إلى الطابق الأول بعد أن تجولت في الغرف السفلى والقاعات التي بنيت بحيث تواجه أي عدوان، فهناك فتحات للقنص بالبارودة ربما.

الطابق الثاني هو الاخر عقود وشبابيك مطلة على الفضاء أحجار النوافذ جميعها مزخرفة، القبب المتهدمة تحتفظ بألوانها ورسوماتها .

تطل من شبابيك القلعة الصخرية على عالم فسيح جداً، حيث تطل عليك يافا والمروج الخضراء وكل شيء ساطع بفعل الشمس المائلة إلى الغروب.

أسأل الأخ عبد الله البرقاوي وأنا أطل على هذا العالم الفسيح هل تتذكر"ستي لولو" لا أتذكرها، ولكنهم يتحدثون عنها الشيء الكثير بحكمتها ودينها وثرائها، فالحجة لولو كانت محجة لكل طالب ولا ترد أحداً رحمها الله.

أعرف أن جدتي لولو ذات تاريخ تراجيدي كأي امرأة برقاوية تترمل في ذلك الزمان، فهذه العائلة لا تزوج لأحد غريب إلا إذا كان في مستوىً مساوياً لمستواها، كما أنها لا تتزوج من عائلات إلا المثيلات لها.

فإذا كان والدي قد ولد عام ١٩١٢ في ذنابة ومات أبوه وهو يبلغ الخامسة من عمره، فهذا يعني أن جدي قد مات هناك ١٩١٧- ١٩١٨ تقريباً، وإذا كان سن زواج المرأة آنذاك بين الخامسة عشرة والعشرين في أكثر تقدير، فأن جدتي تكون قد ترملت وهي في بداية العشرين من عمرها.

ابنة العشرين ونيف لاتتزوج أبداً من أحد بعد عبد الله باشا البرقاوي الذي كما تقول رواية أبي كان حين يخلع قبعته الجندرمية تهر منها ليرات الذهب.

وإذا طلب منها أن تساعده على خلع جزمته تجيبه.. عبد الله لاتنسَ أني بنت الشيخ رشيد، وهو أحد مشايخ قلعة شوفة، لولو هذه ما أن شبَّ ابنها نسيم حتى غادرها دون عودة إلا في زيارات قليلة.

ويبدو أن أمي كانت تبادل لولو الكره كيف لا وبديعة محمد أديب الجغليط البسطامي ترى نفسها أرقى من تلك المرأة الأمية، بديعة المتعلمة لاتستطيع أن تقبل تعجرف امرأة لا امتياز لها سوى أنها برقاوية وبنت شيخ، ولهذا فإن جدتي كانت تحاذر زيارة أبي حتى في فلسطين.

لا أذكر كم كان عمري حين نقشت صورة جدتي في ذهني عندما زارتنا في نوى.

فأنا لا أذكر منها سوى قامتها الطويلة وثوبها الخمري وشالها الأبيض.

وقد علمت فيما بعد- أن أمي رفضت أن تعود إلى طولكرم كما أرادت جدتي، وسافرت جدتي إلى طولكرم ولم تر أبي حتى ماتت هناك، لكنها قبل أن تموت سجلت البيت باسم نسيم برقاوي وحرمت ابنتها الوحيدة التي اهتمت بها "وضحى".

أذكر أنه في عام ١٩٦٧ دخل والدي البيت في نوى كالعادة ظهراً، وجلس على غير عادته على"الكنبة" ونحن في انتظاره لتناول طعام الغداء. نظر إلينا نظرة فيها شي من الحزن وقال:" الحجة أعطتكم عمرها" ستكم لولو" توفيت".

لاشك أن جدتي لولو التي تجاوزت الثمانين عاشت حياة صعبة جداً، وحيدة والبعد عن ابنها الوحيد لابد وأن ولد لديها حزناً شديداً.

وحتى الآن لا أدري كيف تحمَّل والدي هذه السنوات دون أن يرى أمه، لماذا لم يكلف نفسه ولو زيارة قصيرة إلى طولكرم، ومع ذلك فإن جدتي قد سجلت البيت باسم أبي وربما الأراضي التي تملكها كلها.

فكرت بزيارة قبر جدتي "لولو" لأول مرة أفكر بزيارة القبور لكن لا وقت لدي، ولماذا فكرت..؟.

إنها أم، أم أبي التي ولدت وعاشت وماتت في فلسطين، أخرج من قلعة الشيخ موسى البرقاوي التي كانت مقراً رسمياً تدار منها شؤون المنطقة وفي ذهني ترميمها كي تستعيد رونقها وجمالها كما حصل مع قلعة شوفة وقلعة كفر اللبد اللقاء الحميم من الأهل منحني روحاً جديداً وإحساساً بالوجود الممتلئ بالمكان، فها أنا أتجول في ذنابة أنتقل من بيتي إلى قلعتي، أتأمل بيوت الآخرين يقترح علي عبد الله وأحمد أن أبقى في ذنابة لأرى بيت الشيخ إبراهيم وليقوموا بما يجب القيام به من الضيافة، وأعطيهم وعداً بالعودة.

أغادر ذنابة وأنا ممتلئ بالوجود الأصيل، بالفرح بالكبرياء لفترة أحسست أن أناي المتفردة قد لوثت بالماضي.

ومالي ومال الماضي، أنا ابن الحاضر أنا ابن ذنابة الحاضرة في ذاتي. ذنابة التي منحتني لأول مرة أرضاً صلبة وإحساساً بالثبات لأول مرة أشعر أني لست لاجئاً.

ولكن لم أشعر بقوة القرابة كما شعر أولئك الذين استقبلوني استقبالاً حميماً، فأنا -في الغالب - خارج علاقاتي مع إخوتي وأخواتي لا أشعر بأي حاجة لقرابة الدم أبداً، دون أن أذكر الحب المطلق لأفراد أسرتي الصغيرة .

ألوّح لذنابة كما لو أني ألوح لوداع حبيبتي، مشيت قليلاً في أزقتها الملاصقة للبوابة والقلعة.

أودع الناس والأقرباء ونمضي راجعين إلى رام الله، في طريق العودة لم أعد قادراً على مقاومة الرغبة في رؤية بيتنا في كفر اللبد والذي هو الآخر يأخذ شكل القلعة كما روي لي وكما شاهدته من خلال الإنترنيت.

وبنوع من الإحساس بالذنب تجاه مضيفنا من الفارعة الذي كانت السعادة تفر من عينيه كلما نظر إلي، والدهشة تظهر في كلامه الرقيق بعد أن شاهد ما شاهد، سألته فيما إذا كان لديه وقت للمرور بكفر اللبد.

لم يتردد أبداً وقال بنوع من الحماس الشديد طبعاً ولو دكتور ممكن أبقى معك طول الوقت، أدخل كفر اللبد، النظرة الأولى كفر اللبد تختلف عن ذنابة.

إذ يبدو أن ذنابة كانت مكاناً لعائلات مشهورة على مستوى فلسطين كـ" آل سيف، آل الخواجة، وآل الخريشة، وآل سمارة، ولهذا ففيها من البيوت التاريخية التي تعود إلى العصر الإقطاعي العثماني الكثير الكثير وإن كانت بيوت البرقاوي هي المعالم الأرأس فيها.

أما كفر اللبد فللوهلة الأولى ترى قرية وزي القرية ويبدو أن المعلم الأهم فيها هو قصر الشيخ مصطفى البرقاوي هذه المرة دخلت القرية وسألت امرأة عن قلعة البرقاوي لم نصرف أي وقت للوصول إليها.

تأملنا قصراً منيفاً قامت السلطة الفلسطينية بترميمه وجعله مكاناً سياحياً ومعلماً ثقافياً.

القصر واسع جداً، سورٌ عالٍ، بوابة القصر مزخرفة، داخل القصر عشرات الغرف العقدية والدهاليز المبنية بناءً محكماً، لكن أكثر حداثة من بيوت البرقاوي في ذنابة.

بعد أن انتهينا من تأمل القلعة وانتشينا بالمكان وازددت إحساساً بالوجود القوي مررنا برجل كهل وسألته:

- مرحبا ياعم .

- أهلاً وسهلاً.

- قل لي يا عم هل هناك أحد من آل البرقاوي يسكن هنا في كفر اللبد..؟.

- لا يا عم كلهم رحلوا كانوا يسكنون في هذا القصر.

- ولماذا رحلوا..؟.

- هم أصلاً ليسوا من كفر اللبد، كانوا حكاماً كان صاحب هذا القصر رجل ثري جداً، من زمان تركوا كفر اللبد ورحلوا إلى طولكرم وذنابة والأردن.

يحكي عنهم قصص كثيرة ،كانوا أقوياء وقساة والله ياعمي..

لم أشعر بالخجل، فأنا لا علاقة لي بكل ما كان، والحقيقة أني لم أسمع مدحاً مباشراً أو غير مباشرٍ لهذه العائلة. ويبدو أن العصر الإقطاعي كان يتميز بالقسوة الشديدة وأن علاقة هذه العائلة بالفلاحين كانت سيئة.

وتقسيم البلد إلى برقاوي وفلاحين تدل على التمايز الطبقي آنذاك.

ولقد تفهمت أكثر بعد هذه الرحلة إلى ذنابة وكفر اللبد لماذا كان والدي لايكن الاحترام للفلاحين، بل ولا يثق بهم مع أنه في النهاية ابن عائلة سكنت القرية، حتى طولكرم آنذاك حيث بيت الشيخ ناصر حاكما فيها هي قرية. وكره الفلاحين كانت الصفة المشتركة الوحيدة بين أبي وأمي.

أترك كفر اللبد وأنطلق إلى رام الله حيث انتابني شعور أني من رام الله، فرام الله هي المكان الذي يشع بالحياة التي أريد.

في الطريق إلى رام الله نتعرف إلى نابلس أكثر دون أن نقف بها.

ثم نزلنا عند رغبة الصديق عبد الرحمن أبو القاسم لمشاهدة قبر يوسف أو القبر الذي يعتقد أنه دفن فيه.

وهو مكان بسيط وجديد بالقياس إلى بيوت البرقاوي، وقد قال لنا أحد من الذين جاؤوا مسلمين على عبد الرحمن أبو القاسم أن هذا القبر ليس قبر يوسف ولاهم يحزنون، إنه قبر شيخ دين من نابلس أقيم له هذا المقام احتراماً له.

على أية حال لم أكترث كثيراً بهذا المعلم الخالي من الجمال، وأنا بالأصل لا أحب يوسف لأنه كان قاسياً جداً على المرأة التي أحبته. وديواني الأول يحتوي على قصيدة "براءة" ومطلعها:

"ما أنا يوسف يا بني أمي .."

في ساعة متأخرة من الليل الجميل وصلنا رام الله، ويبدو أن التعب قد أخذ مأخذه منا.

عدت إلى رام الله وأنا ثري إلى الحد الذي لم أتوقعه في يوم واحد أرى وادي الباذان والفارعة وسجن الفارعة وطوباس ونابلس وطولكرم وذنابة وكفر اللبد ياه ما أسعدني .

عند ضريحين أبو عمار ومحمود درويش

الأحد /١٣/ ٢٠١٢/٤/

استيقظت صباح الأحد وأنا ممتلئ بالفرح بسبب رحلتي الغنية، لكن روحي مرهقة من شدة المشاعر المختلطة والمتناقضة والتخيلات التي لاتحد والآمال الواقعية.

اليوم سأبقى في رام الله لأزور ضريحين: ضريح أبو عمار وضريح محمود درويش، ثم لأتجول في رام الله كي أتعرف على شوارعها ومحالها ومراكزها.

وكان الصديق عمر حلمي الغول قد أخذ اليوم زمام المبادرة ليكون دليلنا من جهة ومن ثم لنتناول طعام الغداء على مائدته.

وعمر حلمي الغول يحمل بين جنباته قلب طفل كان يعمل في وزارة الثقافة في غزة، وبعد انقلاب حماس الدامي في غزة واحتكارها للسلطة ومؤسساتها اعتقل عمر حلمي الغول لمدة خمسين يوماً، ثم خرج بعد أن توسطت له حركة الجهاد الإسلامي.

يحدثك عمر عن اعتقاله وظروف الاعتقال بنوع من الألم، اذ ليس هناك ما يدعو حماس لاعتقال عمر، فعمر لم يحمل سلاحاً ولم يواجه، إنه من موظفي السلطة، خمسون يوماً في السجن كثيرة جداً، ابن الشعبية السابق يجد نفسه مسجوناً في بلده، إنه من أبناء غزة. بعد الإفراج عنه جاء إلى رام الله وصار بمرتبة وزير دون وزارة، يقلنا عمر من الفندق إلى حيث يعمل أولاً، ومن هناك يأخذنا إلى بيته الذي في طور الإنشاء في منطقة تدعى مدينة الدبلوماسيين.

إنك لتندهش من بيوت مسؤولي حماس في دمشق، حيث الشقق الفارهة في أرقى أحياء دمشق، قس على ذلك بيوت أغلب أعضاء المكتب السياسي للجبهة الشعبية القيادة العامة حيث الفيلات المستقلة في الأحياء الراقية، وكذلك بيوت أعضاء اللجنة المركزية لفتح سابقاً.

ويبدو لي أن الترابط بين السلطة والثروة في الوطن العربي داء عضال.

يقلنا عمر إلى"المقاطعة" أي بيت الرئاسة، ندخل هذا المبنى الجميل والضخم معززين مكرمين فلقد سبقنا خبر قدومنا أن ندخل مكاتب الرئاسة, نتوقف عند ضريح"أبو عمار" الذي قصدنا إليه.

عند ضريح أبو عمّار

الضريح بمقاييس أضرحة العظماء متواضع، تحت ضريح من الرخام غير المزخرف يرقد قائد ملأ

الدنيا وشغل الناس.

فأبو عمار بطل تراجيدي بالمعنى الدقيق للكلمة، أشبه بأبطال التراجيديا اليونانية.

رجل أحيا هو وثلة من أصدقائه حال المقاومة ضد المحتل الصهيوني، وظل يقود الكفاح الفلسطيني في ظروف يحيط الموت به وبالشعب من كل جانب، لم يعرف عرفات -الذي كان يعي صعوبة ما هو بصدد تحقيقه- من أي الجهات تأتيه الطعنات، من الأنظمة العربية أو من أوربا أو من أمريكا أو من العدو طبعاً.

لم يجر تآمرٌ على قضية في التاريخ من أبناء جلدته كما جرى مع قضية فلسطين.

مع رحلة" أبو عمار"الطويلة التف الشعب الفلسطيني حوله وتحوَّل إلى رمز كفاحه.

سجن أبو عمار في دمشق وطرد من دمشق، طرد من الأردن، طرد من لبنان من حصار لحصار عاش الرجل والقضية. سقطت طائرته في الصحراء وعاش، رأى الفلسطيني أبو عمار بكوفيته التي أخذها زيا شعائرياً وطنياً يقاتل في عمان ويوقع اتفاق وقف إطلاق النار في القاهرة بحضور عبد الناصر.

رآه في بيروت داخل الحصار يتجول في الشوارع ضاحكاً, رآه مرتحلاً على ظهر باخرة إلى اليونان.

رآه مقاتلاً في ربوع فلسطين قبل حزيران، وقائداً لمعركة الكرامة.

رآه على منصة الأمم المتحدة يلقي باسم الشعب الفلسطيني كلمة فلسطين.

رآه في جنيف وقد سافر كل أعضاء الجمعية العمومية إليها يستمعون إليه.

رآه يصافح كلنتون ورابين بتوقيع اتفاق أوسلو.

رآه محاصراً في المقاطعة يستضيء بالشمع في غرفة مظلمة.

رآه والدبابات الإسرائيلية تدمر المقاطعة وتصل إلى غرفته المظلمة.

ثم رأى الفلسطيني "أبو عمار" محمولاً على الأكتاف إلى مثواه الأخير.

أبو عمار الذي كان يسمع الشتائم بحقه مباشرة، أنشق عنه بعض رفاق دربه وأسسوا فتح الانتفاضة وحاولوا إنهاءه ولم يحقد عليهم، أتهم بالخيانة بعد أوسلو من قبل الكثيرين دون أن يبالي، لم يحقد على أي فلسطيني معارض، لم يناصب العداء لأي فصيل مقاومة.

عرف ضرورة حماس والجهاد للثورة وللحصول على مزيد من التنازلات من العدو.

كتب: أمام ضريح ياسر عرفات:" هنا يسجى جثمان الرئيس الراحل الشهيد ياسر عرفات الذي ولد في ٤/ ٨/ ١٩٢٩/ واستشهد في /٢٠٠٤/١١/١١/".

(.....)

نصعد إلى الطابق الثاني، هذا كرسي أبو عمار وتلك طاولته في غرفة واسعة متواضعة.

ظهر الكرسي محاطاً بكوفية أبو عمار، والطاولة عليها الأوراق وبعض ما تركه أبو عمار عليها.

إنه لأمر يغري أن أعرف حياة أبو عمار اليومية، كيف كان يعيش، ماذا كان يحب من الأكل، كيف كان يتعامل مع زوجته وابنته..إلخ.

ولكن يبدو أن أحداً لا يعرف إلا الشيء الشائع عنه.

التقطت صورة وأنا واقف خلف كرسي أبو عمار.

عند ضريح درويش

ها أنا وعبد الرحمن أبو القاسم وعمر حلمي الغول أمام ضريح محمود درويش. لوحة مرمرية على القبر مكتوب عليها:"محمود درويش /١٣/ آذار /١٩٤١- /٩ /آب /٢٠٠٨/، وحول القبر مساكب زهور يغلب عليها اللون الليلكي.

الضريح جزء من مجمع ثقافي كبير بني بفن معماري يليق بالعظماء.

تحت التراب يقيم الآن شاعر لم يبلغ السابعة والستين من العمر، أمضى منها أكثر من سبعة وأربعين عاماً في كتابة الشعر، تحت هذا الرخام كائن ملأ الدنيا وشغل الناس بكل نزقه وخوفه وشجاعته وعشقه وآلامه وأفراحه، تحت هذا الرخام يقيم لاعب النرد.

رحيل المبدع خسارة للحياة فكيف إذا رحل ومازالت تسبح في حبره عشرات القصائد.

أسأل صديقي عبد الرحمن الذي رغب في أخذ صورة لنا عند الضريح، وأي معنى لهذه الصورة، وأي ذكرى تلك التي تعنيها الصورة أمام القبر.

يبدو أن هناك وعياً خفياً لدى الكائن بأن العدم نسبي، فهل محمود الحي هو محمود الميت ذاته، طبعاً لا، بل إن محمود الراحل أغنى في الوجدان من محمود المقيم، هكذا هي الحياة. تلتقط الصور التذكارية مع الضريح، وفي اللحظة ذاتها استحضر الحزن العميق الذي حطم قلوب الكثيرين ممن أعرفهم.

نترك القبر خلفنا وندخل متحف درويش، وهو بناء كبير تسمع في كل أنحائه صوت درويش دون توقف وهو يلقي قصائده، فأنَّى اتجهت ترى وجه درويش وتسمع صوته.

في القاعة التي تحتوي على بعض أشيائه، خزانة زجاجية تحتوي على وثائق رسمية، كبطاقة هوية وجلاء مدرسي، وأمر من أمام هذه الأشياء دون اكتراث لأنها لاتقول شيئاً عن درويش، أخطو إلى الأمام طاولة وكرسي، قيل لي أن درويش قد حملهما معه من باريس، إنها الطاولة نفسها التي كتب عليها والكرسي الذي جلس عليه. تشي الطاولة بذوق رفيع وحنين إلى عصر الحداثة، وكذا الكرسي.

قد لا يعرف الكثيرون العلاقة الحميمة التي تقوم بين الكاتب وكرسيه وطاولته، ولست أدري ما إذا كنت قادراً على تعميم تجربتي.

ففي مكتبي في قسم الفلسفة الذي يضم طاولات ثلاث إحداهما للدكتور يوسف سلامة والأخرى للدكتور سليمان الضاهر لم أستطع أبداً أن أجلس على الكرسي وأكتب على الطاولة، الكرسي والطاولة لا ينتميان إلى الفن، ولهذا فتشت عن طاولة قديمة من طاولات جامعة دمشق التي يعود عمرها إلى خمسين سنة وكرسي يليق بها، كلا الطاولة والكرسي مزخرفان.

وكذا في البيت حيث طاولتي وكرسي من فئة الأرابيسك، أتخيل الصداقة التي قامت بين درويش وهذه الطاولة الجميلة والكرسي الأنيق، أتخيل الأوراق المبعثرة وصحن السجائر والكتابة والتوقف عن الكتابة و"التشخيط ".

هذه الطاولة التي شهدت ولادة القصائد ها هي الآن وحيدة للفرجة، إنها في زاوية لا شغل لها سوى أن تعرض ذاتها أمام الزائر، الكرسي هذا لن يجلس أحدٌ عليه إلى الأبد، لن ينتظر أحداً ،كنت أتسائل في إحدى قصائدي:

" ماذا لو كان للشجر عيون..".

والآن أسأل ماذا لو كانت لهذه الطاولة عيون، ولهذا الكرسي عيون؟ فكيف ترانا، وكيف يرانا؟.

أنتبه إلى الخزانة القائمة خلف الكرسي ثلاثة أقلام أو أربعة لست أذكر تستلقي على الرفوف. أدرك من فوري أن درويش أقام علاقة خاصة بالقلم، فالأقلام هي أقلام حبرٍ سائل ومن النوع الفاخر، وأنا مازلت أظن أن احترام الكتابة لاتكون إلا بأقلام الحبر.

عدد كبير من الكتاب يكتبون الآن بالأقلام الناشفة أو بأقلام الرصاص أو ما شابه ذلك. من النادر أن تجد الآن من يكتب بقلم الحبر الفاخر.

أدرك المتعة التي كان يحس بها درويش وهو يضم القلم بين أصابعه وتنساب ريشته الذهبية على الورق. القلم محبوب بالمعنى الدقيق للكلمة، بل إنك لا تستطيع- إن كنت تحب قلمك- أن تهديه للآخر.

أمام أقلام درويش تشعر بحزن وجودي، ذلك أنك تشعر بيتم القلم، أجل إذا كانت علاقة القلم بك

يومية، قلم بعينه، في غيابك عنه يصير القلم يتيماً لا أب له أو أم.

لكل قلم من أقلام المبدع قصة، إنها مجموعة أولاد أناملك، لكل قلم مأثرة، بل- لمن لا يعرف- هناك طقس لإغتسال القلم من الحبر الذي يتراكم عليه ويضر بصحة إنسيابه.

يعتقد بعض الكتاب أنها العادة، عادة الكتابة بالقلم الفاخر، فجمال القلم يغدو جزأً من طقس الكتابة، حيث طقس الكتابة متكامل جداً بشكليه الخارجي والداخلي.

يمنحك القلم الحميم إحساساً خاصاً بأناك أنه أنا لا يشبهه أنا آخر، فيغدو القلم الخاص جزءاً من أناك الخاص.

لست أدري ما إذا كان لدرويش هواية اقتناء الأقلام الفاخرة لكن الأقلام التي رأيتها تشير إلى خصوصية القلم عند درويش، انتقلت من القلم إلى خزانة تحتوي على صفحات من شعر مكتوبة بخط درويش وبأقلام الحبر.

لقد أدهشني خط درويش الأنيق والجميل والمفهوم، إنه أشبه بخط والدي، ربما كانت هذه الأوراق أوراق قد بيضت لأنها خالية من الشطب. أقول أدهشتني لأن خطوط المبدعين بعامة خطوط جميلة لكنها غير مفهومة، وإذا صدقنا أن الخط معبر عن الشخصية فإن شخصية درويش منظمة حذرة وباطنية.

وربما كانت تجربته مع الموت واحدة من أعمق التجارب التي عاشها والتي صاغها في الجدارية.

أجل: حين أمتلأ درويش بكل أسباب الرحيل رحل.

في دمشق

عدت إلى دمشق عشقي المطلق، لكني أعترف بأمر عشته ولم أكن أشعر به قبل ذهابي إلى فلسطين.

لأول مرة أشعر بأن العيش داخل فلسطين- هو العيش داخل وطن، لأول مرة أعرف ماذا يعني الامتلاء بالمكان وطناً للعيش.

لم يكن الاحتلال بقادرٍ على أن يمنعني من هذا الشعور.. أجل أنا في وطن محتل ومسروق وكل ما يمكن أن يقال لكنه وطني وليس وطن الآخرين.

كنت وأنا انتقل من رام الله إلى طولكرم من طوباس إلى ذنابة من نابلس إلى شوفة، من دير غسانة إلى بيرزيت.. أعيش تجربة الحضور المطلق في المكان كل هذا الوطن لي، والعدو عابر جداً.